محاضرة ميشال شيحا معرض الكتاب

وجدت نفسي بعيدة عن ميشال شيحا وفكره وتجربته مرتان، مرة بحكم انتمائي الى فئة اعترضت على المارونية السياسية وهيمنتها ولم تفرق بين ممارساتها، موضوع الاعتراض، وبين المؤسسين الأوائل الذين لا يتحملون تلك المسؤولية. ومرة ثانية بحكم اختصاصي في علم النفس. لكن الظروف والأحداث مضافة الى طبيعتي ربما، جعلتني انخرط في البحث في تاريخ بلدي السياسي ونظامه لمحاولة فهم ما يجري وما وصلنا اليه.
هكذا اجدني متعدية على هذه الميادين التي دخلتها مواربة وخلسة.

يعرف عن ميشال شيحا انه جمع صفات متعددة، فنُعت بالمثالي والواقعي وبرجل متعدد الأوجه؛ لكن خصوصاً بمنظّر الدولة اللبنانية.
هذا اضافة الى قدرته على استشراف المستقبل في قراءته لاحتلال فلسطين وللعولمة. فلقد حذر باكرا جدا من مخاطر اسرائيل على لبنان والمنطقة. وأشار الى نوعين من الضغوط المؤثرة على لبنان. احدهما ضغط الخارج الذي استشرفه منذ ماقبل احتلال فلسطين واتفاق القاهرة وظهور فتح لاند الى احتلال إسرائيل للبنان ومن ثم سيطرة النظام السوري عليه وصولا الى سيطرة طائفة ولو بأغطية منوعة.
الضغط الثاني،او الجوهري،من الطبيعة: موقعه بين الجبل الشامخ وشريط الساحل الضيق الذي يحاصر اللبناني ما يطبع شخصيته بصفات قاعدية، وهي ركوب المخاطر، عكس السوري او الفلسطيني المشدودان الى الداخل.
وكان لهذا آثار جمة على وجود لبنان وتطوره منذ مئات السنين إذا لم نقل الآلاف.

شكلت هذه المقاربة حجر الزاوية في تفكيره والتماسه للوضع اللبناني. وهو عندما يشير الى حضور وخصوصية لبنان عبر التاريخ، لا يطلق مقولته جزافا او شوفينية، بل يعتمد على مادة تاريخية؛ فعودته الى الاطالس القديمة جدا التي رسمت خرائط العالم الاولى، جعلته يلاحظ ان التاريخ المعروف حينها كان ينحصر بين مصر القديمة والدلتا الى حدود لبنان. لذا جاء استنتاجه: هنا يبدأ التاريخ. التاريخ المكتوب بالطبع والمتجسد في الخرائط.
هذا مع العلم ان ذكر لبنان تكرركثيرا في الوثائق المصرية القديمة كما في التوراة ؛ فاستخلص ان لبنان موجود منذ البداية مع الشعوب التي شهدت ولادة التاريخ. فمنذ الالفية الرابعة اتخذت الحملات المصرية طريقا لها للوصول الى الفرات الطريق التي تقع بين صور والحرمون. وجبلنا هذا او رقعتنا كانت تحمل اسم لبنان.

ليس في الامر هنا شوفينية ، كأفكار النازية او الفاشية حول العرق المتميز، على غرار ما نعته صحفي من كتاب الاخبار. انه وصف لوقائع جيوسياسية لا تزال تؤخذ بعين الاعتبار حتى يومنا هذا. الا توصف مصر بهبة النيل ؟ وبهذا الاتجاه كتب السوسيولوجي المصري جمال حمدان مؤلفه : شخصية مصر.
للجغرافيا وجودها ودروسها وتأثيرها. لها ثقلها أيضا. وهو بتنظيره يعتمد على المؤرخ تويمبي ويستنتج ان سكان هذه المنطقة الساحلية عاشوا دائما "بخطورة"، نظرا لموقعهم ومواصفاته . هم جبليون بحارة مختلفون عن جيرانهم . اتصفوا حينها على غرار ما يوصف به الانترنت الان ، الحضور المتعدد والكلي ، في كل مكان وفي نفس الوقت مستخدماً ubiquité التعبير اللاهوتي.

ولأنه من الصعب الاحاطة بجميع جوانب فكره وكتابته ، سأكتفي بإلقاء الضوء على فكرته وموقفه من الوطن ومن الفينيقيين.

حب الوطن عنده ليس فكرة متعصبة عمياء عمل على تصديرها باصطناع او لدواع مصلحية غايتها فقط إيجاد مبرر لدولة لبنان.
فعدا عن اشارته الى ان الوطنية تنامت مع القرون الوسطى ومع المَلَكية المركزية ومع التنظيم الإداري والطرق والسرعة ، واتخذت شكلها ultime النهائي مع ريشيليو، أحد مؤسسي الدولة الحديثة . فهذا المفهوم ، كما يشير ، لم يتخذ كامل معناه الحالي سوى في القرن العشرين مع تقدم مفهوم الإنسانية ووحدة العالم.
ما اوجب توضيح الفرق بين " وطنية (قومية) منهجية (systématique) ضيقة وقاتلة وبين ما هو من اكثر المشاعر شرعية ونبلا في الشعور الوطني وهو حب الوطن.
(ملاحظة أفضل هنا ان نستخدم بالعربية تعبير وطني من وطن بدل قومي من قوم بمعزل عن النقاش الاوروبي حول الدولة القومية).
وبهذا المعنى ينشأ حب الوطن ، بحسبه من الروابط الحميمة والعاطفية بين أمكنة الوطن وبين البشر الذين ينتمون اليها. كالتعلق بمنزل او وجه محبوب او ضاحية او قرية.... هذا ما يتخذ بنعومة فائقة حجم الوطن.
لان حب بلد بمقاس قارة لا نعرف عنها الا القليل هو شعور مصطنع. حينها يصطبغ الشعور الوطني بمكونا الغرور والفخر اكثر من الحب ، كما برابط التضامن ، الذي هو من طبيعة الانتماء (الى قطيع) اكثر من الحب. حينها يكتسب التعلق بالمقاطعة او المدينة أهمية أكبر. وهذا ما كان صاغه توكفيل بتعابير أخرى.

وحب الوطن هذا اختلط في لبنان بالمكون الطائفي، الذي لم يكن في البداية سوى لطلب المزيد من العدل في التمثيل التعددي للطوائف. لكنه مع الوقت ترجم مكتسبات طائفية ومصلحية عبر اشخاص ورموز.
يشير ان جوهر المعضلة اللبنانية ، هو ان العائلات الروحية تهضم بشكل مختلف عن بعضها البعض للطعام المتناول في بعض الأحيان(ص 28). سوء الهضم هذا اصبح سمة دائمة.
مع ذلك ارتأى إمكانية حصول الانسجام عبر عامل مرور زمن ، وإعطاء الوقت للوقت ، الكفيل بأن يوصلنا الى التوازن الدائم المطلوب. لكنه اشترط استخدام الوقت بالممارسة الجدة لخلق العادات التي ترسخ فكرة الوطن.
وعين لك الجهودالمفتقدة في حديثه بمناسبة ذكرى اول أيلول عام 1936: ماذا فعلنا على مستوى التعليم الوطني والمدني؟ أي بروباغندا لهذا العيد الوطني ؟ الذي يجب ان يشكل التجمع الأكثر طبيعية وشرعية لكل اللبنانيين. نحتفل بالعيد كل عام لكن الشعور الطائفي والمذهبي ازداد مع الزمن بدل ان يتراجع.
انظروا اين اصبحنا ؟
اما لماذا وصلنا الى هذا المستوى ؟ فلأن الطوائف ارتكبت جميع محظوراته ، وحاولت كل واحدة منها ان تهيمن على الآخرين . وها نحن وصلنا الى قلب مخاوفه "هلاك وجود الدولة نفسها". سبق وحذرنا: ان الغاء أي طائفة يحدث الانشقاق . وان من ينشؤون على فكرة ان سرقة الدولة شطارة ، لا يمكن ان نطلب منهم ان يضعوا ضريبة على مدخولهم ! وكيف يمكن ان يهتموا بالصالح العام او ببناء المدينة ؟ وأضيف : كيف يمكن ان نطلب منهم الغاء الطائفية، علة وجودهم في السلطة وامتيازاتهم كطبقة ؟
الم نلاحظ انهم يزيدونها ترسخا وخصوصا مع قانون الانتخاب الجديد والانتخابات ؟

ذهبت الاخلاقيات الفردية واحترام القانون اللذان جعلهما معا ما يسعف القانون ويعطي معنى الحياة في المجتمع . صرنا دولة بلا قوانين.
وبحسبه لو ان من يحكمونا أرادوا حقا ان لا يكون لبنان بلدا "طائفيا" ، لوجب على كل طائفة ان توافق ، دون الكثير من الصراخ، ان تتمثل أحيانا بأقل من أهميتها او حجمها. والتعويض قد يكون بان تمثيلها سيفوق في أحيان أخرى حجمها.

متسائلا الا يكفي التمثيل الطائفي النسبي في البرلمان لإقامة التوازن الضروري ؟ ما حاجتنا له في الإدارة وفي كل مكان ؟ الا يمثل شخص درزي كفؤ جميع المواطنين ؟
الا اذ كان يجب حمل الميزان ووضع وزير مقابل وزير وكاتب مقابل كاتب ، علينا il faudra que tous nous donnons notre langue au chat بمعنى من الأفضل ان نخرس . لأننا بهذا الشكل ندخل بلدنا في صعوبات لا حل لها.

اما فكرته وكتاباته عن الفينيقيين ، فإن أكثر ما استغربه في الحقيقية هذا الانقسام حولهم . وهكذا بدلاً من أن تكون الفينيقية فكرة جامعة تساهم في تشجيع الانتماء الى وطن له جذور تاريخية وانجازات يفتخر بها أبناؤه ، نجح اللبنانيون في جعلها خطاً فاصلاً بين انتمائين جعلوهما متعارضين ومتصارعين بدل ان يكونا متكاملين ومتصالحين. وكأن الاصول الفينيقية للبناني تمنع الانتماء العربي او تقف عائقاً بوجهه !! وكأن اللغة العربية ليست هي نفسها ابجدية وتحتوي على الكثير من الألفاظ والكلمات ذات الأصل الفينيقي الكنعاني !!

إنه سلوك لبناني نموذجي في نمطيته ، قدرة اللبنانيين الفذة على تحويل انجازات عظيمة يقومون بها الى مشاكل يختلفون حولها وعليها.

أذكر أن كتاب التاريخ الذي درست فيه كان يجنح بخيالي مع الاميرة الجميلة التي امتطت عرض البحر هربا من التسلط . وكانت قرطاج . واذكر اني سرحت مع الملكة التي كانت تتنزه على شاطئ صور وهداها كلبها الى صدفة الموريكس واللون الارجواني.

مع ان كتبنا جعلت اكتشاف اللون بأهمية اختراع اللغة اذا لم يكن اكثر . ما جعل اختراع الأبجدية عادياً وخفيفاً فلا يكتسب المكانة ولا المساحة التي يستحقها في وعينا ؛ وحتى الآن يغيب عنا تماماً مدى القفزة النوعية التي شكلتها الأبجدية في الوعي البشري على ما يؤكد مارشال ماك لوهان الذي اشتهر بكتابه "مجرة غوتنبرغ" . ففي مؤلفه "من اجل فهم وسائل الاتصال"، يشير الى اسطورة قدموس الذي ذهب لتحرير اوروبا التي اختطفها الاله زيوس فزرع اسنان الثور على الشواطئ الاغريقية ما يرمز الى الأبجدية . لكننا نحتقر الاساطير.

واهمية الابجدية لخصها المؤرخ إ اتش غومبريتش:

فقط بستة وعشرين رمزا بسيطا ، لا يزيد كل منها على زوج من الانحناءات ، تستطيع ان تكتب ما تريد... ففكرة ان يعبر كل رمز عن صوت واحد ، وانه بستة وعشرين فقط من هذه الرموز لديك كل ما تحتاج اليه لكتابة كل كلمة ممكنة. كان هذا اختراعا جديدا تماما، اختراعا لم يكن ليصل اليه الا شخوص مارسوا الكتابة كثيرا، ليس فقط كتابة النصوص المقدسة والاناشيد، ولكن كل انواع الرسائل والعقود والايصالات. كان هؤلاء المخترعون تجارا، رجالا سافروا طولا وعرضا في البحار، يقايضون ويتاجرون في كل البلدان. عاش هؤلاء بالقرب من اليهود، في موانئ صور وصيدا. وهي مدن أكبر وأقوى بكثير من بيت المقدس، وبالصخب والهياج نفسيهما الموجودين في بابل. انهم الفينيقيون . يجادل البعض انها ليست اختراعا فلقد كانت هناك كتابات سبقتها. واجيب ان اكتشاف فرويد للاوعي سبقه أيضا كم من الكتابات عن الموضوع. مع ذلك هو أبو اللاوعي.

في خضم صراعنا السياسي نهمّش، اذا لم نقل نسخّف، أحد أعظم الاختراعات في تاريخ البشرية الذي يعادل اكتشاف النار والدولاب. حيث يقول ماك لوهان أن هذا الاختراع غير العلاقات بين البشر ونقل تفكيرهم من

التفكير السحري والاسطوري الى التفكير العقلاني عبر الانتقال من عالم الأذن العضوي الى عالم العين البارد البراغماتي . ويجد في هذا الامر بداية انتقال الحضارة الغربية الى ما نسميه التفكير العقلاني. بينما نحن لم نستفد مما اخترعه لنا الفينيقيون الذين نتخاصم بشأنهم وكأنهم سقط متاع. وابقينا على تفكيرنا الغيبي.

شخصيا لا أجد أي تعارض لجذوري الفينيقية مع عروبتي. تنوع الانتماءات غنى وانسجام .

ان الأوطان تبنى وتتأسس على ميتولوجيا تحمل فكرة جوهرية ما ولأن الأدب والفكر والخيال يلعبون دورا جوهريا في بناء صورة ، سواء متخيلة او حقيقية ، للوطن. اسطورة تشكل الدينامو او القلب النابض الذي يبث الحياة في بنية الوطن التحتية وفي بلورة هوية وطنية جامعة. ألدو سهكسلي يؤكد أن الأمم تم اختراعها الى حد كبير من قبل شعرائها وروائييها. ولقد قدم كل من سعيد عقل والرحابنة في تاريخنا الحديث ميتولوجيا للبنان الذي حلموا به . هذا مع التحذير دائما من الوقوع في فخ التطرف والقومية الشوفينية.